بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

المُقَدِّمَة

الحَمدُ للهِ الَّذي تَنَزَّهَ عن الشَّبيهِ، وَجَلَّ عَنِ النَّشبِيهِ، تَفَرَّدَ بِالإِنْعَامِ والرِّعَايَةِ، فَوَجَبَ شُكْرُهُ صَرِيحاً لا كِنَايَةً، وامتَنَّ عَلَى عِبَادِهِ بِمعرِفَةِ أسرَارِ كِتَابِهِ، وَالكَشفِ عَن مَكْنُونِ فَصْلِ خِطَابِهِ، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ وَوُجُوهِ إعرَابِهِ، وَصَلَوَاتُهُ وَسَلَامُهُ عَلَى خَاتَمِ أنبيائِهِ وَخَيرِ أحبَابِهِ، أفصَحِ الخَلقِ لِسَاناً، وأحسَنِهِم بَيَاناً، حَبَاهُ رَبُّهُ بِالمَثَانِي، مُعجِزَةِ الألفَاظِ وَالمَعَانِي، فَعَلَيهِ مِنَ اللهِ بَدِيعُ صَلَوَاتِهِ وسَلامِهِ، مُطَابَقَةً لِجَمَالِ ذَاتِهِ، وَتَكمِيلاً لِشَرَفِ صِفَاتِهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأصحَابِهِ، أطوَادِ العِلمِ الرَّاسِخَةِ، وَمَثَاقِيلِ الحِكَمِ الرَّاجِحَةِ، إنَّه جوادٌ مُنعِمٌ لطيفٌ كَرِيمٌ.

أمَّا بَعْدُ:

فاعلمْ-علَّمَكَ اللهُ الخيرَ، ودلَّكَ عليه، وقيَّضَهُ لَكَ، وجعلَكَ من أهلِهِ- أنَّ أحَقَّ العُلُومِ بالتَّعَلُّمِ، وأولاهَا بالتَّحَفُّظِ-بعدَ المعرفَةِ باللهِ-جَلَّ ثناؤُهُ- عِلمُ البلاغة، ومعرفةُ الفصاحَة، الذي بِهِ يُعرَفُ إعجازُ كتابِ اللهِ-تعالى-، النَّاطِقِ بالحقِّ، الهادي إلى سبيلِ الرُّشدِ، المدلولِ به على صِدقِ الرسالةِ وصِحَّةِ النُّبوة، التي رفعتْ أعلامَ الحقِّ، وأقامتْ منارَ الدِّينِ، وأزالتْ شُبَهَ الكفرِ ببراهينِها، وهتكتْ حُجُبَ الشَّكِّ بيقينِها، وقد عَلِمْنَا أنَّ الإنسانَ إذا أغفلَ عِلْمَ البلاغةِ، وأخَلَّ بمعرفَةِ الفصاحةِ، لم يقعْ عِلْمُهُ بإعجازِ القُرآنِ مِن جِهَةِ ما خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِن حُسنِ التَّأليفِ، وبراعَةِ التَّركيبِ، ومَا شحنَهُ بِهِ مِن الإيجازِ البديعِ، والاختصارِ اللطيفِ، وضَمَّنَهُ مِنَ الحلاوةِ، وجلَّلَهُ من رَونَقِ الطَّلاوةِ، مع سهولَةِ كَلِمِهِ وجزالَتِها، وعذوبتِها وسلاستِها... إلى غيرِ ذلكَ مِن محاسِنِهِ التي عَجَزَ الخلقُ عنها، وتَحَيَّرتْ عقُولُهم فيها.

وبناءً على ذلك فقد أَلَحَّ عليَّ طُلَّابُ المرحلةِ الرابعةِ في كلية الشريعةِ/جامعةِ تكريت عام(١٤٣١هـ/٢٠١٠م)؛ للقيام باختصار عُلومِ البلاغة: (المعاني والبيان والبديع)، وتبويبِها بما يُناسبُ اختصاصهم، وكُنتُ مُتردِّداً في ذلك كثيراً، فلمَّا رأيتُ مِنهُم حَثًّا على التَّرقِّي والاستطرادِ في هذا العِلمِ، عجزتُ عن حُسنِ التَّخلُّصِ ممَّا طلبُوهُ، وصِرتُ في هذا الأمرِ بينَ تَرديدٍ وتغليبٍ في القيامِ بهذا الأمرِ وبَذلِ الوُسعِ فيه، وبينَ خائفٍ من التَّقصيرِ، أُقَدِّمُ رِجلاً وأُؤَخِّرُ أُخرى، إلى أنْ ظَهَرَ لي حُسْنُ التَّوجيهِ من أُستاذي الفاضل الدُّكتور(**أحمد حمد مُحسن الجبوري**)[1]،

[1] أُستاذُ البلاغة الأول في جامعة تكريت، كلية التربية، قسم اللغة العربية، له مؤلَّفاتٌ وبحوثٌ في علوم البلاغة(المعاني والبيان والبديع)، وتخرَّج على يديه عددٌ كبير من طلاب العلم، ومنهم المؤلِّف.

للدُّخُولِ في هذا الأمرِ، مُعتمداً بذلك على مُحاضراتِهِ القيِّمة التي أملاها عليَّ وعلى طُلَّاب العلمِ في قسمِ اللغةِ العربية، وعلى ما توصَّلتُ إليه في أُطروحتي للدكتوراه[1]، فَقَدَّمْتُ لهم مُلخصاً لطيفاً، ثم رأيتُ بعد ذلك أن أتوسع في بعض المواطن، وأزيد على بعضٍ؛ ليكون ذلك المختصر كتاباً تحت عنوان:

قُطُوفٌ دانيةٌ في عُلومِ البلاغة (المعاني-البيان-البديع)

بنيّةِ التَّعلُمِ والمُذاكَرةِ والإفادَةِ لنَفْسِي قبل كُلِّ شيءٍ، فَما أفادني إيَّاهُ الكريمُ المَنَّانُ سيعودُ-بلا شكٍّ- على الطُّلَّابِ والإخوانِ، وأكُونُ قد أحببتُ في داخلي ووجداني عِلماً هو أشرفُ أنواعِ الأدبِ قَدْراً، وأعلاها مكانةً وخطراً؛ لأنَّهُ عِلمٌ يُعنى باستخراجِ أسرارِ البلاغة من معادِنِها، والكشفِ عن محاسنِ النُّكتِ المودَّعةِ في مكامِنِها، فهو مُنتقدُ قوى البصائرِ، ومِسْبَارُ غَوْرِ الفهمِ والخاطِرِ، ومِضمارُ ما يقعُ به التفاضلِ، وينعقِدُ بين الأماثلِ في شأنِهِ التَّسابُقِ والتَّناضُلِ...

ولا أدَّعي أنَّني بلغتُ في هذا الاختصارِ الكمالَ والاستيعابَ الشَّامل؛ فالكمالُ للهِ-تعالى- وحدَهُ، وإنَّما هي محاولةٌ أرجو من اللهِ-تعالى- أنْ يجعلَها خالصةً لوجهِهِ الكَريم، مقبُولَةً عندَهُ يومَ الدِّين، وآملُ أن يكونَ التَّوفيقُ قد حالفَ جُهديَ المتواضع هذا، وأكُون قد أسهمتُ-ولو بجُهدِ المُقِلِّ- في الكَشف عن بعضِ الجوانبِ المُشرقةِ في بيانِ بعضِ أسرارِ القُرآنِ الكريمِ وإعجازِهِ الباهرِ، فتلكَ أغلى أُمنياتي، وذلك هو غَرَضي، فإنْ كُنتُ قد أصبتُ فذلك فضلُ اللهِ عليّ، وإن كانتِ الأُخرى فإنَّما هي من نفسي، وأستغفرُ اللهَ-تعالى-.

ورجائي من كلِّ ناظِرٍ يطَّلِعُ على عيبٍ في هذا العمل أنْ يَدُلَّني عليه، ويَرشُدَني إليه، فإنَّ الدِّينَ النَّصيحة، والمسلمونَ بخيرٍ ما تعاونوا، وما نجحَ سلفُنا الصَّالحُ- وكانوا خيرَ أُمَّةٍ أُخرجتْ للنَّاس- إلَّا بهذِهِ الفضيلةِ، وأستَغفِرُ اللَّهَ العَظِيمَ عَمَّا شَذَّ بِهِ القَلَمُ، أَو زَلَّ بِهِ الفِكرُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَسلَمُ مِنَ الوُقُوعِ في الخطأ أَحَدٌ، وَلَا سيما طُلَّابُ العلمِ من أمثالي، فلَيسَ الفَاضِلُ مَنْ لَا يُخطِئُ بَل الفَاضِلُ مَنْ تُعَدُّ أخطاؤه، وأسألُ اللَّهَ-تعالى- لي وللقارئ حُسنَ العَاقِبَةِ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَنفَعَ بِهِ طَالِبَهُ وَالنَّاظِرَ فِيهِ، وَأَنْ يُعَامِلَنَا بِمَا هُوَ أَهلُه.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رَسُولِهِ الصَّادِقِ الأمينِ، وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجمعينَ، إلى يومِ الدِّينِ.

[1] الموسومة بـ (صديق حسن خان القِنَّوجي **بلاغياً** في تفسيره: فتح البيان في مقاصِدِ القُرآن).

الأستاذ المساعد الدكتور
فلاح حسن مُحَمَّد الجُبُوري
جامعةُ تكريت- كُلِّيَّةُ العلوم الإسلامية- قسمُ أُصول الدين
١٠/رمضان/١٤٣٤هـ

التمهيد
الفصاحة والبلاغة

أولاً-الفصاحة:

الفصاحةُ: هي الظُّهورُ والبيانُ، تقولُ: أفصَحَ الصُّبحُ إذا ظَهَرَ.

والكلامُ الفصيحُ: **(ما كان واضحَ المعنى، سهلَ اللفظ، جيدَ السبك، ولهذا وجب أن تكونَ كلُّ كلمةٍ فيه جاريةً على القياس الصرفي، بيِّنةً في معناها، مفهومةً عذبة سلسة)**.

شروط فصاحة الكلام:

١- خُلُوصهُ من ضعف التأليف: أي مخالفة القواعد النحوية، كما في قولنا: **(ضَرَبَ غُلامُهُ زيداً)**، فإنَّ رجوع الضمير في **(غُلامُهُ)**إلى المفعول المتأخر لفظاً **(زيداً)**، ممتنعٌ عند الجمهور؛ لئلا يلزم رجوعهُ إلى ما هو متأخِّر لفظاً ورتبةً.

٢- خُلُوصهُ من تنافر الكلمات: أي ما تكون الكلمات بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعسر النطق بها متتابعةً، كما في قول الشاعر:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفر وليس قُربَ قبرِ حربٍ قبرُ

فالتنافر حاصلٌ في الشطر الثاني من البيت، ولا يخفى ثقلها على اللسان عند نطقها مجتمعةً، ولعل الشاعر أراد بيان حال وعورة مكان قبر أخيه، وصعوبة الوصول إليه، فدلَّ بذلك على ذلك.

٣- خُلُوصهُ من التعقيد اللفظي: أي أن يكون الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد بسبب تأخر الكلمات أو تقديمها عن مواطنها الأصلية، أو بالفصل بين الكلمات التي يجب أن تتجاورَ ويتصل بعضها ببعض، فإذا قلتَ: **(ما قَرَأَ إلا واحِداً مُحمَّدٌ مَعَ كِتاباً أخيهِ)**، كان هذا الكلام غير فصيح لضعف تأليفه؛ إذ أصله: **(ما قَرَأَ مُحمَّدٌ مَعَ أخيهِ إلا كِتاباً واحِداً)**، فَقُدِّمتِ الصفةُ على الموصوف، وفصل بين المُتلازمين، وهما أداة الاستثناء والمُستثنى، والمُضاف والمُضاف إليه.

٤- خُلُوصهُ من التعقيد المعنوي: أي أن يعمدَ المتكلمُ إلى التعبير عن معنى فيستعمل فيه كلماتٍ في غير معانيها الحقيقية، فيسيء اختيارَ الكلمات للمعنى الذي يُريده، فيضطرب التعبير

ويلتبس الأمر على السامع، مثال ذلك أنَّ كلمة(**اللسان**) تُطلق أحياناً ويُراد بها اللغة، قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ** ﴾ [ابراهيم:٤]، أي ناطقاً بلغة قومه، وهذا استعمالٌ صحيحٌ فصيحٌ، فإذا استَعْمَلَ إنسانٌ هذه الكلمة في الجاسوس، وقال: **(بتُّ الحاكمَ ألْسِنَتُهُ في المدينةِ)** كان مُخطئاً، وكان في كلامِهِ تعقيدٌ معنويٌّ؛ لأنَّ الفصيحَ من ذلك استعمالُ كلمة (**أَعْيُنَتُهُ**) بدلاً من (**ألْسِنَتُهُ**)، والمعنى في ذلك أوضح من أن يُشرح.

ثانياً- البلاغة:

البلاغة في **اللغة**: هي الوصولُ والانتهاء، تقول: بلغتُ مكاني، أي: وصلتُ إليه وانتهيتُ عنده.

وفي **الاصطلاح**: **(هي تأديةُ المعنى الجليل واضحاً بعبارةٍ صحيحةٍ فصيحةٍ لها في النفس أثرٌ خلَّاب، مع مُلاءمة كل كلامٍ للموطِنِ الذي يُقالُ فيهِ، والأشخاص الذين يُخاطَبُون)**.

وللبلاغة **وظيفتان**: **الأولى**: الإقناعُ والإمتاعُ، وستتوضح هذه الوظيفة عندما ندرس عناصر البلاغة، والوظيفة **الثانية**: إرشادنا إلى كيفية القول، وقد قالوا: البلاغة هي: كيف نكتب؟ وماذا نكتب؟ كيف نقول؟ وماذا نقول؟ فالجواب عن (كيف...؟) يقتضي ممارسة فنون البلاغة وتعلمها، والجواب عن(ماذا...؟) يقتضي معالجة فنون القول، ومطابقة ذلك القول الفني لمقتضى حال السامع أو القارئ.

الهدف من دراسة البلاغة:

ينقسم الهدف من دراسة البلاغة إلى قسمين:

أ. هدفٌ خاص، وهو معرفة أو إدراك إعجاز القرآن الكريم.

ب. هدفٌ عام؛ وينقسم إلى قسمين:

١. الموازنة بين أنواع الكلام، ليتميّز الغثّ من السمين، والخبيث من الطيب، والرديء من الجيّد.

٢. تعليم من استعجم ذهنُهُ ومرض ذوقُهُ طريق البلاغة، وذلك بإرشاده إلى قواعد-وسائل- توصله إلى أمثل الطرق في معرفة الكلام البليغ من غيره.

عناصر البلاغة، أو (عناصر الكلام البليغ):

للكلام البليغ عناصرٌ، أي: مكوناتٌ أو مقومات، إذا نَقَصَ أحدها لم تتوفّر لذلك الكلام صفة البلاغة، وهذه العناصر يمكن إيجازها بما يأتي:

١. **الفكرة**: وهي ما تعانيه النفس، وما يجري في الخاطر، وما يصطرع في الذهن من قضايا ليس لها أصوات، ولا تُعدُّ من الكائنات إلا إذا اتحدت بغيرها، على أن تكون هذه الفكرة معبرة نيّرة.

٢. **الألفاظ**: وهي المفردات التي ستكون قوالبَ للفكرة، على أن تكون هذه المفردات متميزةً بالصحة والوضوح.

٣. **المعاني**: هي أمور عقلية لا تظهر إلا إذا اكتست بالألفاظ، فهي بمثابة الروح للجسم، والفرق بين المعاني والفكرة؛ أنّ الفكرة صفة عامّة غير محددة، والمعاني صفة خاصّة تتطلب حين تدفقها الألفاظ المناسبة.

٤. **العاطفة**: هي الانفعال الذي يجعل النفس تميل إلى المعنى المُعبَّر عنه أو تنفر منه.

٥. **الأسلوب**: هو طريقة الكاتب أو الشاعر في إيجاد الأفكار، وتوليد المعاني، وإبراز الصور بحيث يكون كثيرَ القرب للسامع.

٦. **الخيال**: هو الرابط بين هاتيك العناصر جميعها؛ إذ به يتم العمل الأدبيّ الناجح، وذلك بما للخيال من قدرة للتحايل على اللغة باستعماله الوسائط البيانية كالتشبيه وأقسامه، والاستعارة وأنواعها، والكناية وألوانها، وأنواع المجاز الأخرى التي سنقف عليها-إن شاء اللهُ تعالى- ضمن مفردات علم البيان.

أقسامُ علوم البلاغة:

بَقِيَتْ موضوعاتُ البلاغة مبثوثة وموزَّعة عند المتقدمين في المصنفات الأدبية والنقدية، والتفسيرية، واللغوية والنحوية، حتى نضجت بفضل جهود العلماء المتوالية، وأصبحت مصطلحات واضحة ومتداولة عندهم، ثم جاء دور المتأخرين فجمعوها في كتبٍ مُستقلةٍ، وأوّل من جمعها **السَّكّاكي**(ت٦٢٦هـ)؛ إذ هضم زبدة جهود العلماء السابقين، وجعلها في القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم) في بابين هما: (**علم المعاني، وعلم البيان**) إذ لم يعد (**علم البديع**) واحداً منها، بل عدّه محسنات لفظية ومعنوية، فجعله ذيلاً لعلمي المعاني والبيان، ثم جاء **القزويني**(ت٧٣٩هـ)، فجعل علوم البلاغة ثلاثة بإضافته علم البديع إليها، فكان القزويني آخر من تميّزت لديه هذه الأقسام الثلاثة، ولم يخرج العلماء الذين جاءوا بعده عن هذا التقسيم، وهاك تلك الأقسام:

١. ما يُحترَزُ به عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، سمّاه (**علم المعاني**).
٢. ما يُحترَزُ به عن التعقيد المعنوي، سمّاه: (**علم البيان**).
٣. ما يُعرَفُ به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته، سمّاه: (**علم البديع**).

إذاً فالبلاغة عنده ثلاثة أقسام، هي: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

أما **علم المعاني**، فقد انحصر عنده في ثمانية أبواب: أوّلُها: أحوال الإسناد الخبري، وثانيها: أحوال المسند إليه، وثالثها: أحوال المسند، ورابعها: أحوال متعلقات الفعل، وخامسها: القصر، وسادسها: الإنشاء، وسابعها: الفصل والوصل، وثامنُها: الإيجاز والإطناب والمساواة.

وأما **علم البيان**، فقد انحصر عنده في ثلاثة أبواب أوّلها: (**التشبيه**: أركانه وأنواعه)، وثانيها: (**المجاز** وأقسامُهُ)، وثالثها: (**الكناية والتعريض**).

وأما **علم البديع**، فقد انحصر في بابين هما:

أ- **المحسنات المعنوية**: وهي أنواع كثيرة، نذكر منها: (الالتفات، والطباق، واللف والنشر، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ونقيضه، وتشابه الأطراف، والأُسلوب الحكيم، والتورية).

ب- **المحسنات اللفظية**: وهي أنواع كثيرة أيضاً، نذكر منها: (الجناس، وتوافق الفواصل، والقلب، وحُسْن التخلُّص، وحُسْن الابتداء والانتهاء).

البابُ الأوَّل: علمُ المَعَانِي

المعاني- **لغةً**: جمعُ معنى، ومعناه: المُرادُ والمقصود.

واصطلاحاً: (هو علمٌ يُعرَفُ به أداءُ الكلامِ حتى يكونَ مُطابقاً لمقتضى الحال، معصُوماً عن الوقوع في معنى خاطئٍ لا يُريدُه المُتكلِّم، أي: هو تحقيقُ مقولة: لكلِّ مقامٍ مقالٌ، أو هو الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد).

يُعَدُّ عبدُ القاهر الجُرجاني(ت٤٧١هـ) أوّل من أصَّلَ علمَ المعاني تحت ما يُسمَّى بـ(نظرية النظم) في كتابه الفذ(دلائل الإعجاز)؛ ليُبرهِنَ على أنَّ إعجازَ القرآن كان في صياغته للمعاني بالطريقة المثلى، والدرجة الفضلى، التي تخضع وتتوخَّى معانيَ النحو، والعربُ-لبشريتهم- لن يبلغوا- إن أرادوا معارضةَ القرآن الكريم- بعضَ الكمال الذي هو عليه، ونظراً لتلك الأهمية سنقف-إن شاء اللهُ تعالى- على أبواب وموضوعات علم المعاني الغنية بالدرر البهية، والتحف السَّنِيَّة.

أبواب علم المعاني:

تنحصر موضوعات هذا العلم في ثمانية أبواب رئيسة، غيرها-عند التحقيق- فروعٌ لها، وهي: (أحوال الإسناد الخبري، وأحوال المسند إليه، وأحوال المسند، وأحوال متعلقات الفعل، والقصر، والإنشاء، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة).

٥- خروج الأمر إلى معنى التعجيز والتبكيت:

إذا توجَّه الأمرُ إلى مَن لا قُدرةَ له على تنفيذه، ولا طاقةَ له على الإتيان به، فإنَّه حينئذٍ لا يُحمل على حقيقته؛ لأنَّ التكليف والإلزام لا يُؤمر به إلَّا المستطيع القادر، وإذا جاء على هذه الصيغة أو الصورة فإنَّه يخرجُ عمَّا وُضِعَ له، أي إنَّه يُفيدُ إظهار العجز، ومن ثمَّ يتضمن خلاله التبكيت والتقريع والتعنيف وما شابه، فمن التعجيز ما جاء في قوله-تعالى-: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[البقرة:٣١]، ففعل الأمر(**أَنْبِئُونِي**) أمرُ تعجيزٍ، مع لفتهم إلى النظر في حالهم والتفكر في ما هم فيه من عجزٍ وضعفٍ أمامَ قُدرةٍ وعلمِ اللهِ-تعالى-، الذي لا تُحيط بكنهه السماواتُ والأرضُ.

وعلى النسق السَّابق في بيان غرض التعجيز والتبكيت جاء الأمرُ في قوله-تعالى-:﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[الأحقاف:٤]، فالفعل(**ائْتُونِي**) والذي قبله يأمر به-تعالى- المشركين أن يأتوا له بكتاب جاءهم من عِنْدِ الله قبل القرآن، يشهد لهم بصحة ما هم عليه من الشرك، أو الإتيان ببقيةٍ من علم الأولين إنْ لم يكن لهم كتاب، وهذا الأمر تبكيت لهم وإظهار لعجزهم وقصورهم عن الإتيان بذلك، وتبكيتهم عن ذلك الإتيان لإلزامهم بعد ذلك بالحجة، ويظهر ضلالهم، وهو-سُبْحَانَهُ- عليمٌ بنفي العلم عنهم، فلا كتاب ولا برهان لديهم، حتى لا يبقى بعد هذا التبكيت والتقريع لهم أدنى شك بجهالة عقولهم، وبيان تعنتهم وتكبرهم.

٦- خروج الأمر إلى معنى السُّخرية والاستهزاء:

يفيدُ الأمرُ-علاوةً على ما هو عليه من الاستعلاء والإلزام- السخريةَ والاستهزاء، أي: الإهانة والتحقير للمأمورين، وذلك عِنْدَما يكون المخاطَبُ قليلَ الشأن في نفس الآمر، مع عدم المبالاة به، لذا لا يُحملُ على ظاهره؛ لأنَّه يخالف ما في نفس الآمر بالفعل، فمثلاً قول الكفار للنبي-ﷺ- في سورة(يونس-عليه السلام-) يُخبرُ اللهُ-تعالى- عنهم: ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ**﴾[يونس:١٥]، نجد أنَّهم لَمَّا سمعوا ما عاظَهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمّ عبادةِ الأوثانِ والوعيد الشديد لمن عبدها، طلبوا منه أحد الأمرين: إمَّا الإتيان بغير هذا القرآن مع بقائه على حاله، أو تبديله على ما يوافق هواهم ويلائم غرضهم، مع

علمهم أنَّه لا يستطيع أن يأتيَ بشيءٍ من عِنْده، ولا يخفى على القارئ أنَّ هذا محطّ الاستهزاء والسخرية منهم بالنَّبِيِّ-ﷺ- وبكتاب الله-عَزَّ وَجَلَّ-.

٧- خروج الأمر إلى معنى التوبيخ والتقريع:

مرَّ بنا أنَّ التوبيخَ والتقريعَ يكونانِ في مقام التأنيب والتعنيف مع الإيجاع باللوم، ومن هذه المشاهد العصيبة ما نجده في موقف من مواقف وأهوال يوم القيامة، كما هو المُشاهَدُ في قوله-تعالى-:﴿**انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**﴾ [المرسلات:٢٩-٣١]، فالفعل(**انْطَلِقُوا**) في الموضعين يصور حال سكان جهنَّم، وكيف هم بادون فيها من ضنك وعذاب، وفوق ذلك كله يُؤمرون بأمرٍ فيُقال لهم:﴿**انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾ في الدنيا، يقول لهم ذلك خزنةُ جهنَّم توبيخاً وتقريعاً، أي: سيروا إليه من العذاب، وهو عذاب النَّار، ثم بعد ذلك يكرر الفعل ليفيد التأكيد، مما يزيد الأمر سوءاً بهم وإهانة عليهم، وليكون التقدير: هذا جزاء ما كنتم تزرعونه في الدنيا فاحصدوا ما غنمتموه، وهو حصب جهنَّم وجحيمها.

٨- خروج الأمر إلى معنى الوعيد والتهديد:

يُفهمُ من فعل الأمر الوعيد والتهديد إذا كان الآمر به غير راض عن الفعل المأمور به، وكان في الامتثال للأمر ما يعود بالضرر على المخاطبين، كما هو واضح في قوله-تعالى-:﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الأنعام:١٣٥]، فالمتأمل للآية بمجموع سياقها العام يجد أنَّ فيها تخويفاً؛ لاحتوائها على الوعيد والتهديد الشديد، وخاصة إذا نظرنا إلى الفعل(**اعْمَلُوا**)، وما في معناه داخل هذا السياق العام، لوجدنا التطابق واضحاً فيما قدَّمنا من حدِّ التهديد والوعيد؛ والمقصود من هذا الأمر الوعيد والتهديد والمبالغة في الزَّجر عمَّا هم عليه، فهو كقوله:﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**﴾[فصلت:٤٠]، فالآية كلها توحي بالتهديد والوعيد مما لا يقادر قدره ولا ينقطع نظيره، والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد؛ كأنَّ المهدد يريد تعذيبه مجمعاً عليه، فيحمله بالأمر على ما يفضي به إليه.

ومن التهديد والوعيد ما ورد في قصة نبيِّ الله شعيب-عليه السلام-، وذلك في قوله-تعالى-:﴿**وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ**

﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[الأعراف:٨٧]، فورود الفعل (**اصْبِرُوا**) هنا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم، وليس من باب الأمر بالصبر على الكفر، وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين، ومثله قوله-تعالى-:﴿**فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ**﴾[التوبة:٥٢].

الثاني- النهي:

النهي من أقسام الإنْشَاء الطلبي، ومعناه: (**طلبُ الكَفِّ عن الفعلِ أو الامتناعِ عنهُ على وَجْهِ الاستعلاءِ والإلزامِ، ولا يتحقَّقُ ذلك إلَّا إذا كان النَّهي صادراً من رُتبةٍ عُليا إلى رُتبةٍ دُنيا، وله صيغةٌ واحدةٌ، هي: الفعلُ المضارعُ المقترنُ بـ(لا) النَّاهية**).

أغراض النهي البلاغية:

لم يكن للأمر وحده النصيب الأوفر في احتوائه على الأغراض البلاغية، بل شَاطَرَهُ النَّصيب النهي بصيغته الوحيدة المشهورة، فقد كَثُرتْ أمثلةُ خروج النهي إلى أغراضٍ بلاغيةٍ تُفهمُ من السياق وقرائن الأحوال، وهي غنيةٌ بالمعَاني النفسية التي لها دورُها البارزُ في الخطاب بين المتحاورين، وهذه المعَاني تتجسَّد فيما يأتي:

١- خروج النهي إلى معنى الدُّعَاء:

ذكرنا فيما سبق أنَّ معنى الدُّعَاء التضرع والخشوع، وذلك إذا كان الطلبُ-أمراً كان أمْ نهياً- صادراً من رُتبةٍ دُنيا إلى رُتبةٍ عُليا، ومن أبرز هذه الأمثلة، ما جاء في نهاية سورة(البقرة) المباركة، إذ علَّمنا-جلَّ جلالُهُ- كيفية الدُّعَاء في محكم قوله: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**﴾[البقرة:٢٨٦]، أي: لا تؤاخذنا بإثم ما يصدر منَّا من هذين الأمرين، وهذا تعليمٌ من الله-تعالى- لعبادِهِ كيفية الدُّعَاء، وهو غايةُ الكرم؛ حيثُ يُعلِّمُهُم الطلبَ ليعطيهُم المطلوب، إذاً فالمقام هنا مقام تضرُّع وخُضوع.

وفي سورة (نوح-عليه السلام-) نجد ثلاثة مواضع فيها دعاءٌ بطريق النهي، في قوله-تعالى-: ﴿**وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً**-٢٤﴾، وفي قوله-سُبْحَانَهُ-: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**-٢٦﴾، وفي الثالثة قال-جَلَّ جَلَالُهُ-: ﴿**وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً**-٢٨﴾، فهذه ثلاثة مواضع من مواضع دعاء نبيِّ الله نوح-عليه السلام- على عُصاةِ قومِهِ، جاءت كلها بصيغة النهي، وهذا دعاءٌ عليهم، فبعد أنْ أَعْلَمَهُ اللهُ:﴿ **أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾[هود:٣٦]، دعا عليهم بالهلاك، فأجابَ اللهُ دعوته، فأُهلكوا وغرق معهم صبيانُهم أيضاً، لكن

لا على وجه العقاب لهم بل لتشديد عذاب آبائهم وأمهاتهم، بإراءة هلاك أطفالهم الذين كانوا أعزَّ عليهم من أنفسهم... وقد يشمل دعاؤه هذا كلَّ ظالمٍ إلى يوم القيامة، كما شمل دعاؤه كلَّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ إلى يوم القيامة، وممَّا يزيدُ ذلك إعجازاً وبلاغةً إتيانُ آية سورة (البقرة) وآيات سورة (نوح) في مسكِ الختام من السورتين السَّابقتين، مع تعاضد الأمر بعد النهي والعكس، فيا لها من بلاغة! ويا لها من مناسبة! تتحير فيها عقول ذوي الألباب، ويشيب لأجلها الولدان والأحباب.

٢- خروج النهي إلى معنى التعظيم والتفظيع:

إذا كان المقامُ مقامَ تصويرِ أهوالِ القيامة والنَّار وجحيمها ونحو ذلك فإنَّ النهي حينئذٍ يبرز دورُهُ في إشعال نار التعظيم والتخويف مناسبة للمقام، من ذلك قوله-تعالى-: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**﴾[البقرة:١١٩]، حملاً على قراءة نافع: ﴿**وَلا تَسْأَلْ**﴾ بالنهي وجزم المضارع، والمعنى: ولا يصدر منك السؤال عن هؤلاء وعمَّن مات منهم على كفره ومعصيته، تعظيماً لحاله وتغليظاً لشأنه، أي: إنَّ هذا أمرٌ فظيعٌ وخطبٌ شنيعٌ، يتعاظمُ المتكلم أن يجري على لسانه، ويتعاظم السمعُ أن يسمعَه... والمعنى: وَلا **تَسْأَلْ** عن حالهم التي تكون لهم في القيامة فإنَّها شنيعةٌ، ولا يمكنُكَ في هذه الدار الاطلاع عليها، كما تقول لشخصٍ: (لا تسألْ عن فُلانٍ وقاكَ اللهُ شرَّ ما أُصيبَ به)، تريد أنَّ فُلاناً هذا قد ألَمَّتْ به الشدائدُ وأحاطت به المصائبُ التي لا تُوصفُ لواصفٍ؛ لشدتها وعظم هولها وفظاعتِها.

٣- خروج النهي إلى معنى التهكم والاستهزاء:

يفيد النهي معنى التهكم والاستهزاء إذا كان في مطلوبه غاية الحطِّ والإهانة من شأن المخاطَب، وكان في نفسه واقعاً به حقًّا لا يُمكِنُهُ الفكاك من أسره، من ذلك ما جاء في قوله-سُبْحَانَهُ- في مطلع سورة(النَّحل)-:﴿ **أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴿١﴾﴾، فأمْرُ اللهِ هنا يُرادُ به أحدُ ثلاثة: إمَّا قيام السَّاعة أو العذاب، أو بعثة النَّبي-صلى الله عليه وسلم-، ثم

أُعيد الضمير عليه بصيغة النهي:﴿ **فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ** ﴾، مُراداً به قيام الساعة والعذاب، ومبتغانا هنا الفائدة التي حملها النهي في هذه الصورة البلاغية، التي هي في سياق قرائن استعجال الكفار ليوم القيامة، إذ كان استعجالهم على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة، وفي نهيهم عن الاستعجال تهكمٌ بهم، ومما يزيدُ هذا التهكم والاستهزاء بهم صيغةُ الماضي؛ التي تُفيدُ تحقق وقوع الشيء وكأنَّه حَدَثَ ومَضَى أمرُهُ، وهذا ضربٌ من التهكُّم على استعجالهم لا نهي حقيقة.

ومثلُ هذا النهي نرى في قوله-تعالى-:﴿ **فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ** ﴾[الأنبياء:١٢-١٣]، فهنا يصور لنا القرآنُ الكريمُ حالَةَ الكفار وهم يرون العذاب الأليم مُقبِلاً نحوهم وواقعاً بهم لا محالة، ثم يُنْهَوْنَ عن هذا الركض الذي لا فائدة ولا جدوى من ورائه، استهزاءً بهم وسخريةً، فقد كانوا في نعيمٍ مقيمٍ يسخرون ممَّن آمن من قومهم، فانقلبَ الحالُ بإذن الله-عَزَّ وَجَلَّ- إلى غير ما توقَّعوا، والآن هُمُ الذين يُسخرُ منهم على لسان من ناداهم، مما زادهم عذاباً فوق العذاب المقبل نحوهم، إذ لا نصير ولا معين ينفعُهُم وقتئذٍ؛ فلا مَنْجى ولا ملجأ منه إلا إليه-سُبْحَانَهُ-، نَسُوا اللهَ في الرخاءِ فَنَسِيهُم في الشدَّةِ والضَّرَّاء.

٤- خروج النهي إلى معنى التهديد والوعيد:

يُفهم التهديدُ والوعيدُ إذا كان المقامُ مقامَ عدمِ الرضى عن الفعل، ففي قوله-تعالى-: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾[آل عمران:١٥٦]، نهي فيه تهديدٌ للمُخاطَبين، أي: لا تكونوا مثل المنافقين المذكورين في تنفير المؤمنين عن الجهاد، أو وعيد للذين كفروا، واللفظ عام شامل لقولهم المذكور ولِمَنشئِهِ الذي هو اعتقادُهم.

وكذلك في قوله-تعالى-: ﴿ **وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ** ﴾[هود:١١٣]، فالله-سُبْحَانَهُ وتعالى- هنا يأمر رسولَهُ وعبادَهُ المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، ويهدد ويتوعَّد مَنْ يركن إلى الظلمة من المشركين وغيرهم، عن طريق النهي، ويؤكد هذا التهديد قوله-جلَّ اسمه-:﴿ **فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ** ﴾، مما يزيد حرارة الوعيد والتهديد إلى ما لا نهاية، وإن كان هذا الميل مجرَّد الرضا عنهم بالقلب، نسألُ الله-تعالى- العافية.

الثالث- الاستفهام:

يُعَدُّ الاستفهامُ من أكثر الأساليب الإنْشَائيّة استعمالاً في القرآن الكريم واللسان العربي، لذلك ازداد اعتناءُ العلماء به كثيراً وأَوْلَوْهُ العنايةَ الفائقة، ذاكرينَ أنَّ الاستفهامَ يُفيدُ زيادةً على معناه الحقيقي-الذي (**هو طلبُ العلمِ بشيءٍ لم يكنْ معلوماً لدى السَّائلِ مِنْ قبلُ، أو طلبُ خَبَرِ ما ليسَ عِنْدَكَ**)- مَعَانٍ بلاغية أُخرى، تُضفي على التعبير البَيَاني مزيداً من السحر والجمال، وتُعطي الكلام حيويّة، وتزيد من الإقناع والتأثير به، فتثير السامعَ وتجذب انتباهَه، وهذه المَعَاني يستخرجها الفطنُ بمعونةِ السياق وقرينة الحال.

أغراضُ الاستفهام البلاغية:

مِمَّا مَرَّ يُفهمُ أنَّ الاستفهامَ هو ما يُطلبُ به معرفة المستفهم للمجهل به، لكنَّنا نجدُ أنَّ أساليبَ الاستفهام لا تَصْبُّ دائماً في هذا النَّهر، ولا سيما في كتاب الله-تعالى-؛ لأنَّه-سُبْحَانَهُ- مُنَزَّهٌ عن أن يسألَ سُؤالاً على المعنى الحقيقي للاستفهام؛ فهذا يستلزمُ الجهل بالمسؤول عنه، و-سُبْحَانَهُ وتعالى- عالمٌ بكلِّ شيءٍ لا تخفى عليه خافية، وما ورد في القرآن الكريم من سؤال حقيقي- وهو قليل جداً- جاء محكيّاً عن غيره-تعالى-، والذي سنراه أنَّ الهمزة كان لها الحظ الأوفر في الاستعمال القرآني وكثرة المَعَاني البلاغية التي دارت في رحاها؛ وذلك لخفتها على اللسان والآذان معاً، فضلاً عن أنَّها تصلح لأن يُسأل بها عن مضمون الجملة وعن مفرداتها، وأنَّها تدخل على الأفعال والأسماء والحروف وأدوات الشرط، ويُسأل بها عن متعلقات الفعل، ومن ثم يأتي

الحرف(هل)، وبعدها بقية أسماء الاستفهام، والذي يعنينا هنا المَعَاني البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام، وأهمها:

١- خروج الاستفهام إلى معنى الأمر:

الأمرُ من الأغراضِ البلاغيةِ التي تُستفادُ من أسلوب الاستفهام، ولهذا الغرضُ ميزةٌ خاصَّة تُميِّزُه عن غيره من الأغراض البلاغية الأُخرى؛ فهو فضلاً عن أنَّه أحدُ أقسام الإنْشَاء الطلبي، إلَّا أنَّه رفيقُ دربٍ طويلٍ يرافِقُنا كثيراً في بعض الأساليب البلاغية ولا سيما الخبر منها، من ذلك قوله-تعالى-: ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[هود:١٤، والأنبياء:١٠٨]، فالمراد بهذا الاستفهام الأمر؛ أي: **أَسْلِمُوا**، وهو بطريق الاستفهام آكد وأبلغ؛ لأنَّ السياقَ سياقُ ذِكرٍ تَفَرَّدَ اللهِ-عَزَّ اسمُهُ- بالأُلوهية، ومقصور على الوحدانية لا يتجاوزها أحدٌ إلى ما يُناقضُها أو يضادها، وفي مثل هذا الاستفهام إيجابٌ بليغ لما فيه من معنى الطلب، والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر.

وعلى غرض الأمر حُمِلَ الاستفهامُ الوارد في قوله-تعالى-:﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ**﴾[الأنبياء:٨٠]، إذ إنَّه واردٌ في سياق قِصَّةِ نبيِّ اللهِ داود-عليه السلام-، استدعى به اللهُ-عَزَّ وَجَلَّ- أهلَ مكَّةَ إلى الشُّكرِ، والاستفهامُ في معنى الأمر؛ أي: **اشكروني** بذلك الإنعام الذي أنعمتُ به عليكم وعلى من كان قبلكم، وهذا الوجه أدخلُ وأدلُّ على طلب الشكر من قولنا: (فهل تشكرون)، أو (فهل أنتم تشكرون)؛ لأنَّ إبرازَ ما سيتجدد في معرض الثابت أدلُّ على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله، وفي هذا الاستفهام بلاغةٌ عجيبةٌ، ونُكتٌ تُحيِّرُ العقول؛ إذ كان سياق الآيات في ذِكر ما أنعم الله به على نبيه داود-عليه السلام- ثم سرعان ما توجَّه الخطابُ إلى أهلِ مكَّةَ، وكأنَّهُ يُخبرُهم ويُذكِّرُهم ويُرغِّبُهم بالشكر بعد الإسلام، مع ما في هذا الأمر من الترغيب والحث والإغراء على طلب الشكر منه-تعالى-، فيا لها من بلاغة أوجزها هذا الاستفهام.

٢- خروج الاستفهام إلى معنى التقرير:

من مجموع أقوال أهل العلم يظهر لنا أنَّ الاستفهام يخرج إلى معنى التقرير، إذا كان القصد منه حمل المخاطب على الاعتراف بموضوع قد استقرَّ عِنْدَه، أي: طلب الإقرار والتحقيق والإثبات، من ذلك ما جاء في قوله-تعالى-: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ**﴾ [البقرة:٢٤٣]، فالخطاب هنا مُوجَّهٌ إلى النَّبِيِّ-ﷺ- مباشرةً، وإلى كُلِّ واحدٍ من بعده،

والذين خرجوا هم قومٌ من بني إسرائيل، وجاء الاستفهام بصيغة النفي وهو ليس على بابه؛ لأنَّه معلوم أنَّ الله-تعالى- قد أحاط بكل شيء علماً، ولكنَّ الغرض منه حملُ المخاطب على الإقرار بذلك، وقد جعل الله-سُبْحَانَهُ- قصَّة هؤلاء- لما كانت بمكانٍ من الشيوع والشهرة يحمل كل أحد على الإقرار بها- بمنزلة المعلومة لكلِّ فردٍ أو المُبصَرة لكلِّ مُبصِرٍ؛ لأنَّ أهل الكتاب قد أخبروا بها ودوَّنوها وأشهروا أمرها.

ومنه قولُه-تعالى-:﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً**﴾[الدهر:١]، فالاستفهام يفيد التقرير، وهو تقريرٌ لمن أنكر البعث أن يقول: نعم قد مضى دهرٌ طويلٌ لا إنسان فيه.

ومنه قوله تعالى في سورة (طه): ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾** ﴾.

٣- خروج الاستفهام إلى معنى التعجب:

يخرجُ الاستفهامُ إلى معنى التعجب إذا كان الأمرُ المُستحصلُ على خلاف العادة، من ذلك ما نلحظه في قوله-تعالى-: ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً**﴾[الكهف:٦٣]، فمعنى الاستفهام تعجيبه لموسى ممَّا وَقَعَ له من النسيان هنالك، مع كون ذلك ممَّا لا يكادُ يُنسى؛ لأنَّه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة، وموضع التعجب أنْ يحيا حوتٌ قد مات وأُكل شِقَّه، ثم يَثِبُ إلى البحر، ويبقى أثرُ جريته في الماء لا يمحو أثرَهَا جريانُ الماء.

وفي قصَّة نبي الله داود-عليه السلام- قال-تعالى-: ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ**﴾ [ص:٢١]، فهنا معنى الاستفهام التعجيب، والتشويق إلى استماع ما بعده لكونه أمراً غريباً، كما تقول لمخاطبك: هل تعلم ما وقع اليوم؟! ثم تذكر له ما وقع، فالملكان-عليهما السلام- هنا قد دخلا على النَّبِيِّ-عليه السلام- ليلاً وفي غير وقت دخول الخصوم، ومن دون استئذان، فضلاً عن أنَّهما لم يدخلا عليه من الباب الذي يدخلُ منه الناسُ، وكان المحراب من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقي عليه آدميٌّ بحيلةٍ، وهذه جملةٌ من الأمور الغريبة التي تستلزم وحدها الحيرة والدهشة والتعجب.

٤- خروج الاستفهام إلى معنى النفي:

كثيراً ما نجدُ نصوصاً من الذكر الحكيم تبدأُ بالاستفهام، لكن بعد التفتيش في مَعانِيها نجدُ أنَّها تُعطي معنى النفي؛ وإذا تساءلنا عن سببِ هذا العدول في الصيغة، وجدنا أنَّ هناك فرقاً بين الدلالة على النفي بالاستفهام والدلالة عليه بأداة النفي المعهودة؛ فإنَّ في الاستفهام تحريكاً للفكر، وتنبيهاً للعقل، وحثّاً على النظر والتأمل، فضلاً عن أنَّ ذلك يدلُّ على الثقة التامَّة لدى المتكلم؛ لأنَّه يلقي كلامه وهو يدركُ أنَّهُ لو كان في كلامِهِ أدنى ريبٍ لردَّه عليه المخاطب، جواباً على استفهامه، مع إحراجه في ذلك، وهذا النوع ورد واضحاً في قوله-تعالى-: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا**﴾[البقرة:١١٤]، فهذا الاستفهام بمعنى النفي، وفيه أبلغ دلالة على أنَّ هذا الظلم غير متناهٍ، وأنَّه بمنزلةٍ لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم، أي: لا أحد أظلم ممَّن مَنَعَ أو يمنعُ مساجد الله، وفي هذا الاستفهام بلاغةٌ مميزة؛ إذ الذي يتولَّى الإجابة هو السَّامعُ أو القارئُ، وهذا هو المقصودُ منها فيصعب بعدئذٍ أن يتراجع أو ينسى ما قرَّره بنفسه؛ لأنَّه منه صدر بعد إعمال الفكر والتأمل.

ومن قطف هذا الثمر ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً**﴾ [الأنعام:٢١و٩٣و١٤٤، والأعراف:٣٧، ويونس:١٧، وهود:١٨، والكهف:١٥، والعنكبوت:٦٨]، فالاستفهام الوارد في جميع الآيات الكريمات يُفيدُ النفي؛ أي: لا أحد أظلم وأعظم حظاً وأجهل فعلاً منه؛ لأنَّهم بذلك قد افتروا على الله-تعالى- كذباً بقولهم لأصنامهم: هؤلاء شفعاؤنا عِنْدَ الله، وقولهم: الملائكة بنات الله، وأضافوا كلامه-سُبْحَانَهُ- إلى غيره، واللفظ مع ذلك وإن كان لا يقتضي إلَّا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الإنكاري، فالمقام يفيد نفي المسوي لهم في الظلم أيضاً، ليكون المعنى على هذا: لا أحد مثلهم في الظلم، فضلاً عن أن يوجد من هو أظلم منهم، وبهذا يتضح الفرق بين الاستفهام بمعنى النفي والنفي الصريح، للفوائد المذكورة السَّابِقَة، فهو أبعثُ إلى الإغراء وتحريك ذوق المخاطَب وتنبيهِه.

٥- خروج الاستفهام إلى معنى التعظيم والتفخيم والتهويل:

يأتي الاستفهام بمعنى التفخيم والتعظيم في كثيرٍ من آي القرآن الكريم، وخاصَّةً فيما يتعلَّق بوصف أهوال يوم القيامة والعذاب ونحو ذلك، ومن هذه المشاهد العظيمة التي جاءت بطريقة

الاستفهام ما نراه في قوله-سُبْحَانَهُ-:﴿**ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣**﴾ فهنا اجتمعت أمورٌ عديدةٌ لتصوير وتهويل حالة يوم القيامة، وأنَّها ممَّا يجبُ أن تقرعَ لها القلوب، وخاصَّةً أنَّ لفظ(القارعة) من أسماء يوم القيامة؛ لأنَّها تقرعُ القلوب بالفزع وتقرعُ أعداء الله بالعذاب، فضلاً عن أنَّها اشتملت على حرفي(القاف والعين)، وهما من الحروف الطُّلق التي عدَّها الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٠هـ) من أطلق الحروف وأضخمها صوتاً، مع ما في حرف(القاف) من صفات القوَّة، فهو حرفٌ شديدٌ مجهورٌ مُسْتَعْلٍ مُفَخَّمٌ، فناسبَ بذلك مُراعاة المقام الذي اقتضى صوتاً عالياً يقرع القلوبَ بشدَّة؛ ويؤيده وضعُ الظاهر موضع المضمر، فإنَّه أدلُّ على هذا المعنى، ويؤيده أيضاً قوله: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾، فإنَّه تأكيدٌ لشدَّة هولها ومزيد فظاعتها، حتى كأنَّها خارجةٌ عن دائرة علوم الخلق، بحيث لا تنالها درايةُ أحدٍ منهم، وإذا ما انتقلنا إلى نهاية السورة فإنَّنا نجد المعنى نفسهُ يتجلَّى ويتكرَّرُ، ممَّا يؤيدُ أنَّ الاستفهام هنا للتهويل والتفخيم، قال-تعالى-: ﴿**وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١**﴾.

ومن أمثلة هذا الغرض البلاغي ما جاء في قوله-تعالى-:﴿**كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ**﴾[الهمزة:٤-٥]، فبعد الردع عن الحسبان الذي يحسبه هذا الذي يجمعُ المال ويُعَدِّدُهُ، جاء الاستفهامُ للتهويل والتفظيع حتى كأنَّها ليست ممَّا تُدركه العقول، وتبلغه الأفهام، ومما يزيد من هذه الشدَّة وهذا التهويل الإيضاح بعد الإبهام، مع ما في إضافة الاسم الشريف إليها من زيادة في التعظيم والتفخيم، وكذلك في وصفها بالإيقاد، إذاً فالسورةُ من أوَّلها إلى آخرها تهويلٌ وتفخيمٌ، ممَّا تتحطَّم له أحجار القلوب، فيا له من مشهد؟! ويا لها من بلاغة وتصوير؟! اجتمع ذلك كله لتهويل شأن تلك النَّار العجيبة، ليكون المعنى: وما الذي أعلمك ما حقيقة هذه النَّار الفظيعة؟! التي تُحَطِّمُ كلَّ ما يُلقى فيها وتلتهمه، نسألُ اللهَ-تعالى- النجاة.

٦- خروج الاستفهام إلى معنى الاستبعاد والإنكار:

يأتي الاستفهامُ ويرادُ به معنى آخر غير ما هو له، وهو هنا الاستبعاد والإنكار، أي: عَدُّ الشيء بعيداً وغير متوقع حصوله، مع نفي وقوعه والقطع بعدم تحققه، وهو في قوله-تعالى-: ﴿**وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً**﴾[الإسراء:٤٩و٩٨]، فالاستفهام هنا جاء حكاية عن

شبهة الكفار في أمر المعاد بعد ذكر شبهتهم في أمر النبوات، ومغزاهم في ذلك كله لا مجرد الاستفهام الحقيقي؛ لأنَّهم يُنكرونه جملةً وتفصيلاً، إنَّما المراد الإنكار والاستبعاد؛ لما بين رطوبة الحي ويبوسة الرميم من المباعدة والمنافاة، ثم تكرّرَ الاستفهامُ في الآية نفسها؛ ليدل على شدَّة وتفاقم استبعادهم وتأكيده وتقريره، فالكفرةُ يستبعدون البعثَ وينكرون وقوعَه، لهذا عبَّروا عنه بصيغة الاستفهام التي طُويَ فيها البعثُ المُستفهَم عنه، وكأنَّهم يُريدون أن يظنَّ البعث والمعاد هكذا سؤالاً مُثاراً وتَعجُّباً مقاماً، يسأله كلُّ كافر، ويستبعد وقوعه كلُّ جاحد مُعاند، فردَّ الله مقالتهم هذه بكلماتٍ وجيزةٍ ضربتْ قولَهم عرضَ الحائط: ﴿**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً**﴾[الإسراء:٥٠]، ولا تكونوا عظاماً؛ لأنَّكم تستبعدون أن يُجدِّدَ اللهُ خلقَكم ويردَّه إلى ما كان عليه، فصارَ الجزاءُ من جِنسِ العمل.

ومن ذلك ما نجده في قوله-تعالى-: ﴿**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾[الأعراف:٧٠]، فبعد مُناصحة نبيِّ اللهِ هود-عليه السلام- لقومه وحرصه الشديد على نجاتهم من العذاب جابهوه بالاستنكار؛ لدعائه إلى عبادة الله وحدَهُ دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله، وإنَّما كان هذا مُستَنْكَراً عِنْدَهم لأنَّهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه، لذا قالوا: ﴿**وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾، أي: نترك الذي كانوا يعبدونه من الأصنام، وهذا داخل في جملة ما استنكروه، وهكذا يقول المقلدةُ لأهلِ الاتباع، والمبتدعةُ لأهلِ السُّنَّةِ.

٧- خروج الاستفهام إلى معنى الاستهزاء والسخرية:

مَرَّ بنا أنَّه إذا كان الغرضُ من الخِطَاب عدم الاعتداد بالمخاطَب وتصغير شأنه وتقليل قيمته، فسيُفيد حينئذٍ الاستهزاء والسخرية بالمخاطَب، ومن أمثلة هذا الغرض ما نجدُه في قوله-تعالى- على لسانِ قومِ نبيِّ اللهِ شُعَيب-عليه السلام-: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾[هود:٨٧]، فالسياق وقرائن الأحوال يُشيران إلى أنَّ هذا الاستفهام خارجٌ عن معناه الحقيقي؛ فهم مُنكِرون لهذا الدين جُملةً وتفصيلاً ومنه الصَّلاة خاصةً؛ لأنَّها من أعظم شعائر الدين، لذا فهو للاستهزاء والسخرية به-عليه السلام-؛ لأنَّ الصلاة عِنْدَهم ليست من الخير الذي يُقال لفاعله عِنْدَ إرادة تلبين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لا يناسب الصواب: (أصدقتك أمرتك بهذا؟) ثم بعد هذا كله زاد هذا الاستهزاء سخرية بالمخاطَب، إذ وصفُوه في نهاية الآية بوصفين يُفهمُ منهُما الاستهزاء أيضاً، ويؤكدان الاستفهام المستهزئ به أوّلاً، ومجمل القول لهذا الاستفهام التهكم والاستهزاء

والسخرية بصلاته-عليه السلام-، وأنَّه لا يستحق بها شيئاً من الخصوصية التي ادَّعى، وليس عِنْدَه مزية أخرى في زعمهم الفاسد سواها، لذا عبَّروا عن ذلك كلِّه بصيغة الاستفهام؛ ليدلوا على ثباتهم في الكفر ووقوفهم المُعاند في الضَّلال والمكابرة.

٨- خروج الاستفهام إلى معنى التبكيت والتهكم:

ذَكرنا أنَّ التهكم والتبكيت من الأغراض البلاغية التي تُفهم من السياق إذا كان في مطلوب الأمر إهانة المخاطَب وتقريعه وتعنيفه بالعذل وكثرة اللوم، وهنا يطالعنا التبكيت والتهكم بِخِلَّتِهِ الجديدة في صيغة الاستفهام، من ذلك قوله-تعالى-: ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ**﴾[الأنعام:١٤٨]، لمَّا أخبر الله-تعالى-عن المشركين أنَّهم سيقولون هذه المقالة، ظنَّا منهم أنَّ هذا القول يخلصهم عن الحجة التي ألزمهم بها النَّبِيُّ-عليه الصلاة والسلام- وأنَّ ما فعلوه حقٌّ بزعمهم، أمرَ-سُبْحَانَهُ- نبيَّهُ-عليه الصلاة والسلام- أن يقولَ لهم بصيغة الاستفهام: هل عِنْدَكم دليلٌ صحيحٌ يُعدُّ من العلم النافع، وحجةٌ وكتابٌ يُوجبان اليقين بأنَّ الله راضٍ بذلك ﴿**فَتُخْرِجُوهُ لَنَا**﴾ لننظر فيه ونتدبره؟ والمقصود من هذا، التبكيت لهم؛ لأنَّه قد علم أنَّه لا علم عِنْدَهم يصلح للحجة ويقوم به البرهان، وبهذا الاستفهام قطع أطماعَهُم وسفَّه أحلامَهُم وبكَّتهم بأبشع تبكيتٍ، مع تضمُّنه زيادةً على التبكيت التعجيز لهم؛ لأنَّهم ليس لهم حُجَّة ولا علم فيخرجوه أصلاً.

ومن هذا التبكيت والتهكم ما نجده في قوله-جَلَّ شأنُهُ-: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[يونس:١٨]، فهنا بَيَّنَ-سُبْحَانَهُ وتعالى- لعباده أنَّ عبادةَ الأصنام لا تنفعُ مَن عَبَدَها ولا تَضُرُّ من لم يَعْبُدْها، ثم أمرَ نبيَّهُ-عليه الصلاة والسلام- بأن يُجيبَ عن مقالتهم بصيغةِ الاستفهام الواردة في الآية الكريمة، والمعنى: أتخبرون اللهَ أنَّ له شركاء في مُلكه يُعبدون كما يُعبد؟ أو أتخبرونه أنَّ لكم شفعاء بغير إذنه، واللهُ-سُبْحَانَهُ- لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سماواته وفي أرضه؟!!! ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾، وهذا الكلام حاصلُه عدم وجود مَنْ هو كذلك أصلاً، وفي هذا من

الفصلُ الأوّل- الخبرُ والإنشاءُ:

يكادُ لا ينفصلُ الخبرُ عن الإنشاء في مُصنَّفات البلاغيين؛ فما أنْ يضعوا حدّاً للخبر حتى يُردفوه بالإنشاء؛ لأنَّهما قالبانِ متمايزانِ من التَّعبير، عماذُهما احتمالٌ أو عدمُ احتمالِ الصِّدق والكذب في القول، إلا أنَّ لكلٍّ منهما وظيفته الدَّلالية الخاصَّة به التي تُميِّزه عن غيره، وسنقف- إنْ شاء اللهُ تَعَالَى- عِندَ كلٍّ منهما على حِدة؛ لنرى القيمة التعبيرية فيهما، وعلى الوجه الآتي:

المطلب الأول- الخبر:

الخبر- لغةً واصطلاحاً:

عِندَ الرجوع إلى مُصنَّفات الأوائل من علماء اللغة نجد زبدة تعريفات الخبر تدور على أنَّه: النَّبأ، ويُجمع على أخبار، والإخبار هو الإعلام، والخبيرُ العالمُ بالأمر.

وهو في الاصطلاح البلاغي: (**كلُّ كلامٍ يحتملُ الصدقَ أو الكذبَ لذاتِهِ، دونَ النظرِ إلى قائلِهِ، باستثناءِ الأخبارِ القرآنيةِ والنبوية الشريفة، والحقائقِ العلميةِ، والبديهياتِ التي لا يُشَكُّ فيها**).

مؤكِّداتُ الخبر:

مما سبق اتضح لنا أنَّ الأُسلوبَ الخبري له علاقةٌ بظاهرة التوكيد-وجوداً أو عدماً، وقلَّةً أو كثرةً- وعلى ضوء ذلك قَسَّمَ البلاغيون الأحوالَ التي يكونُ عليها المخاطَب على: (**خلو الذهن، والتردد، والإنكار**)، ومبناهم بذلك كُلِّهِ على وجودِ المؤكِّدات وعدمها، وعلماءُ البلاغة المُتأخرون والمعاصرون استقصوها من كتب سابقيهم وحصروها في: (**إنَّ، وأنَّ، ولام الابتداء، وإمَّا، ولن، ولكن، وكأنَّ، ونوني التوكيد، وأحرف التنبيه، والحروف الزائدة، والقسم، والتِّكرار اللفظي والمعنوي، وأمَّا الشرطية، واسمية الجملة، وضمير الفصل، وتقديم الفاعل في المعنى، وقد، والسين وسوف الداخلتين على فعلٍ دالٍّ على وعدٍ أو وعيدٍ**)، فكلُّ جملةٍ جاءت مؤكَّدة بإحدى هذه المؤكِّداتِ لها مغزى خاص زائد على معناها الأصلي الذي سيقت لبيانه، ومن أمثلة ذلك ما جاء في قوله-جَلَّ شأنُهُ-: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران:٦٢]، ففي الآية

الكريمة جملةُ مؤكداتٍ؛ ضمير الفصل للحصر، ودخول اللام عليه لزيادة تأكيده، وزيادةُ(مِنْ) في قوله: ﴿**وَمَامِنْإِلَهٍ**﴾ لتأكيد العموم والاستغراق[1].

ونظير هذا المثال ما أمر اللهُ-سُبْحَانَهُ- به رسوله-ﷺ- أنْ يُجيبَ على الكفار سؤالهم المتضمن الاستهزاء والسخرية والإنكار: ﴿ **وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** ﴾ [يونس:٥٣]، أي: هل العذاب واقعٌ حقًّا؟ أو هل القرآنُ حقٌّ ؟ فلمَّا كان هذا ديدنهم كان في هذا الجواب تأكيدٌ من وجوه: الأوَّل: القَسَم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع (نعم)، الثَّاني: دخول(**إنَّ**) المؤكِّدة، الثالث: اللام في(**لَحَقٌّ**)، الرابع: اسمية الجملة، وذلك ليدل على أنَّهم قد بلغوا في الإنكار والتمرد إلى الغاية التي ليس بعدها غاية.

أضرب الخبر:

للخبر بموجب هذا المصطلح ثلاثةُ أضربٍ بلاغيةٍ: (إنْ كانَ-المخاطَبُ- خالِيَ الذِّهن من الحُكم، والتَّردُّدِ فيه: استُغنِيَ عن مؤكِّداتِ الحُكم، وإنْ كان مُتردِّداً فيه، طالباً لهُ: حسُنَ تقويتهُ بمؤكِّدٍ، وإنْ كان مُنكِراً: وجبَ توكِيدُهُ بحسب الإنكار، كما قال اللهُ-تَعَالَى- حكايةً عن رُسُلِ نبيّه عيسى-عليه السلام- إذ كَذَّبوا في المرَّةِ الأُولى: ﴿ **إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ** ﴾[يس:١٤]، وفي الثَّانية: ﴿ **إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ** ﴾[يس:١٦]، ويسمى الضَّربُ الأوَّلُ: **ابتدائياً**، والثَّاني: **طلبياً**، والثَّالثُ: **إنكارياً**).

لذلك يمكن أن نقول: الابتدائي:(**زيدٌ قائمٌ**)، والطلبي:(**لَزيدٌ قائمٌ**)، والإنكاري:(**لَزيدٌ لقائمٌ**).

أغراضُ الخبر الأصليَّة:

للخبر غرضان أصليان عِندَ علماء البلاغة، هما الأصلُ في كلِّ خبرٍ، (**فمن المعلوم لكلِّ عاقلٍ أنَّ قصدَ المُخبر بخبره إفادةُ المخاطبِ إمَّا نفسَ الحُكم، كقولك: (زيدٌ قائمٌ) لمن لا يعلم أنَّه قائمٌ، ويُسمَّى هذا فائدة الخبر، وإمَّا كون المُخبر عالماً بالحكم، كقولك لمن زيد عِنْدَه، ولا يعلم أنَّك تعلم ذلك: (زيدٌ عِنْدَكَ)، ويسمى هذا لازمَ فائدة الخبر**).

وهذان الغرضان يُسمَّيان إخراجاً للكلام على مقتضى الظاهر، وكثيراً ما يخرج الكلام أو الخبر على خلاف ذلك؛ لعلةٍ بلاغية تُستَشَفُّ من السياق ومفهوم قرائن الأحوال، فنرى إنزال غير

[1] الاستغراق: هو الشمول لجميع الأفراد بحيث لا يخرج عنه شيء. يُنظر: التعريفات:٢٨.

السائل منزلة السائل، أو إنزال غير المُنكِرِ منزلة المُنكِرِ وبالعكس، كما هو ثابت في مصنفات المُتأخِرِينَ والمُحدَثِينَ.

ففي قوله-جَلَّ شأنُهُ-: ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٩٥]، فالتفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عُذرٍ، ودرجات من جاهد في سبيل الله بماله ونفسه وإن كان معلوماً لكن أراد-تَعالَى- بهذا الإخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا، وتبكيت القاعدين ليأنفوا، وهذا من إنزال المعلوم منزلة غير المعلوم وكأنَّه أمرٌ مُنكَرٌ.

أغراضُ الخبر البَلاغيّة:

مِمَّا سبق أكتملت لدينا صورة، في أنَّ الأصلَ في كلِّ خبرٍ تقديمُ المعرفة أو العلم إلى الآخرين(الفائدة أو لازم الفائدة)، إلا أنَّه وُجِدَ عِنْدَ العُلماء المتقدمين أنَّ الخبر يفيد أغراضاً بلاغيَّةً تُفهم من السياق وقرائن الأحوال، فكما أنَّ قولك: (رَحْمَةُ اللهِ عليه... رَحِمَهُ اللهُ)، فيه معنى الدُّعَاء، كأنَّه قال: (اللهم ارْحَمْهُ)، وخروج الخبر إلى أغراض بلاغية ميادينه واسعة جداً لا تقع تحت حصر؛ لأنَّ اعتماده بالدرجة الأساس على سياق الكَلام وقرائن الأحوال، مع ما يتمتع به القارئ من ذوقٍ رهيفٍ وثقافةٍ لُغويةٍ وأدبيةٍ غير قليلة، ولهذا كُلِّهِ حظي هذا القسم باعتناء علماء البلاغة، التي من أهمها:

١- خروج الخبر إلى معنى الأمر:

من المعلوم أنَّ الأمرَ نوعٌ من أنواع أساليب الإنشاء الطلبي التي تطلب تنفيذ الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام-وسيأتي- لهُ صيغٌ ودلالاتٌ يُعرف بها، وقد يزِغَ نورُهُ هنا في الأغراض البلاغية التي يُفيدها الخبر، ويُقصد بإخراجه إلى معنى الأمر تأكيد وقوع الخبر، والشاهد على ذلك ما دار كثيراً في مصنفات أهل البلاغة وأهل اللغة، من مثل قوله-تَعالَى-: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[البقرة:٢٢٨]، فالتربُّص خبرٌ في معنى الأمر؛ للتأكيد بإشعاره بأنَّ المأمور

به مما يجب أن يُتلقَّ بالمسارعة إلى الإتيان به، فكأنَّهُنَّ امتثلن بالأمر بالتربُّص، فأُخبر به موجوداً متحققاً، ويرادفه قوله-جَلَّ جَلَالُهُ-: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾[البقرة:٢٣٣]، فـ(يُرْضِعْنَ) أمرٌ أُخرِجَ مُخرجَ الخبر؛ مبالغةً في الحمل على تحقق مضمونه، فكأنَّه قد وقع، فأُخبر بوقوعه، والسرّ في إيثار الأسلوب الخبري في الدلالة على تلك المَعَاني الإنْشَائيّة لَعَلَّهُ الدلالة على وجوب امتثال المخاطبين لها بأسلوب التحنن وعدم التعنيف، والمبادرة بإنجازها، فكأنَّ هذه المطلوبات من شأنها ألَّا تُطلب من هؤلاء؛ بل ينبغي عليهم المسارعة إلى تنفيذها وتحقيقها حتى يُخبر عن وجودها لديهم.

٢- خروج الخبر إلى معنى النهي:

أبرز أمثلة هذا النوع قولُه-تَعالَى-: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [البقرة:٨٣]، فهذا الميثاق المنفي خبرٌ بمعنى النهي، جاء على هذه الصيغة لأنَّه من المعتاد عِنْدَ العرب أنَّها إذا أرادت المُبالغة في النهي جاءت به على صيغة الخبر، للاعتناء بشأن المنهي عنه، ولتأكد طلب امتثاله أيضاً، حتى كأنَّه امتُثِلَ فأُخبِرَ عنه، ويدل عليه قراءة أُبَيّ وابن مسعود-رضيَ اللهُ عنهُما-: ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[1]، وكذلك عطفُ بقية الأوامر عليه، والعرب إذا بالغت في النهي عن الشيء أبرزته في صورة النفي المحض؛ إشارةً إلى أنَّه ينبغي أن لا يوجد البتة، فَدَلُّوا على هذا المعنى بما ذَكَرت.

٣- خروج الخبر إلى معنى التَّسْلِيَة والتَّأْنِيس:

القرآنُ الكريمُ مليءٌ بأخبارٍ وقَصَصِ الأُممِ السَّالفة، والخطاب فيها تشكَّلَ بأنواعٍ مُختلفةٍ، فكان لكلِّ قصةٍ أو آيةٍ من آيات التَّسْلِيَة غرضٌ خاصٌ في نسيان الهَمّ والحُزن الذي أصابَ الرسول-ﷺ- والمؤمنين، فتارة يكون الخطاب قَصَصاً؛ ليتأسَّى الرسولُ-ﷺ- والمؤمنون بمن قبلهم من المرسلين، وليتصبَّروا على ما أُوذوا من تكذيبٍ وصُدودٍ، وطوراً يكون الخطاب للمُسَلَّى خطاباً مباشراً لتقوية عزيمته، وقد يكون خاصاً للرسول-ﷺ- جرَّاء مصيبة تمرُّ به، أو للتخفيف

---

[1] يُنظر: الجامع لأحكام القرآن:١/٢٣١-٢٣٢، وتفسير ابن كثير:٩٦.

عنه من جِدَّةِ استهزاء المشركين به... ونحو ذلك من أساليب الخطاب التي جاء بها القرآنُ الكريم في عرض الأخبار والقصص، ومن ذلك تسلية الرسول-ﷺ- جرَّاء ما يمرُّ به وأصحابه من استهزاء المشركين بهم، ما جاء في قوله-تَعالَى-: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأنعام:١٠]، فالآية إخبار قُصد به تسلية النَّبِيِّ-ﷺ- عمَّا كان يلقى من قومه.

٤- خروج الخبر إلى معنى الترغيب:

مِمَّا لاشكَّ فيه أنَّ معظمَ الآياتِ الكريماتِ التي ذكرت الجَنَّةَ وأحوالَها وأحوالَ ساكنيها إنَّما المقصود منها ترغيب الناس فيها، فإنَّ الذِّكر الحكيمَ قد ذكر الثوابَ شيئاً فشيئاً، وإعادةُ ذكرِ المحبوب محبُوبٌ، والتطويلُ بذكرِ اللذات مُستَحْسَن، وهنا نجدُ مجموعةً من الآياتِ الكريماتِ التي وردتْ متراصَّة الدلالة على ما فيها من ذكرِ أوصاف جَنَّةِ النَّعيم، ومُراد الإخبار بها ترغيب المؤمنين خاصةً والناس عامةً، لعمل ما يستحقونها به، ومن هذه الآيات ما جاء في قوله-تَعالَى-: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الأعراف:٥٦]، فهذا إخبارٌ من الله-سُبْحَانَهُ- بأنَّ رحمته قريبة من عباده المحسنين بأيِّ نوعٍ من الأنواع كان إحسانُهم، وفي هذا ترغيبٌ للعبادِ للخير وتنشيطٌ لهم، فإنَّ قُربَ هذهِ الرَّحمة-التي يكون بها الفوزُ بكلِّ مطلبٍ- مقصودٌ لكلِّ عبدٍ من عباد الله-تعالى-.

٥- خروج الخبر إلى معنى العِتاب:

من أبرز ذلك ما نزل بعد معركة بدر الكبرى في قصة أخذ الفداء عن الأسارى، والمشورة المشهورة بين النَّبِيِّ-ﷺ- وبين الصحابة الكرام، في كتب الحديث والتفسير، فقال-جَلَّ جَلَالُهُ- معاتباً لهم: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال:٦٧]، فقد أخبر-سُبْحَانَهُ- أنَّ قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم، وهذا عِتابٌ له-ﷺ- على ترك الأَوْلَى؛ إذ كان الأَوْلَى له تدارك

كثْرة القتل فيهم لا الفداء، وليس عتاباً على فعلٍ مُحَرَّم؛ تنزيهاً لمنصب النبوة عن ذلك، وهذا من لطفه-سُبْحَانَهُ- بعباده وحسن مخاطبته لهم؛ ليُخَفِّفَ عنهم عِبءَ الرسالة وثقل الدعوة وشدة ملاقاة العدو، والله-تعالى- عزيزٌ يقهرُ الأعداء، حكيمٌ في عتابِ الأولياء.

٦- خروج الخبر إلى معنى التحسر والتحزن:

كثُر دورانُ هذا الغرض البلاغي الذي أفاده الخبر في مُصَنَّفاتِ علماء البلاغة ليشمل التحسر والتحزن على فواتِ مأمولٍ، أو فَقْدِ شيءٍ عزيزٍ على النفس، وهذا ما نحسُّه حينما نقرأ قولَ الله-تَعالَى- حكاية عن امرأة عمران[1]-: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[آل عمران:٣٦]، فالغرض من إلقاء هذا الخبر منها:﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، ليس تقديم الفائدة، أو لازمها؛ لأنَّ المخاطب هو الله-عَزَّ وَجَلَّ شأنُه- وقد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، لكن الخبر في الآية يشعرُنا بانفعالات الأسى والحسرة والحزن التي سيطرت على قلبِ الأم، فقد كانت تأمل في ولدٍ تهبه للهِ-تَعَالَى- في خدمةِ بيتِ المقدس، كما هو معلومٌ من السياق، فلمَّا وَضَعَتْها أُنثى ذابتْ نفسُها حسراتٍ؛ لأنَّها خَشِيَتْ أَلَّا يتقبَّلها اللهُ منها.

٧- خروج الخبر إلى معنى التعظيم والتفخيم:

كثيراً ما يخرج الخبر إلى معنى بلاغي يُفيد التعظيم والتفخيم، فهو غالباً ما يأتي لمدحٍ أو إظهارِ شرفٍ، وارتفاعِ منزلةٍ وعُلوِّ شأنٍ وبُعْدِ شأْوٍ، يكثر دورانُه في النَّكراتِ خاصةً، حتى جُعِلَ عَلَماً لها، وللاستنارة من هذه الأمثلة نذكرُ ما جاء في قوله-تَعَالَى-: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[آل عمران:٣٦]، فالخبر ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾- على شرط قراءة تسكين التاء-هو قول الله-سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- لا قول أمِّ مَرْيم-عليهما السلام-، وهذا

---

[1] امرأة عمران هذه هي أم مريم-عليهما السلام- وهي حنة بنت فاقوذ، كانت امرأةً لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يزقُّ فرخَهُ، فاشتهتِ الولدَ فدعتِ اللهَ-تعالى- أن يهبها ولداً، فاستجابَ اللهُ دعاءها، فوافقها زوجُها فحملتْ منه، فلمَّا تحقَّقتْ من الحملِ نذرتْ أن يكون مُحَرراً، أي: خالصاً مُتَفَرِّغاً للعبادةِ ولخدمةِ بيتِ المقدس، فقالتْ: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ... الآية﴾). يُنظر: تفسير ابن كثير:٢٧٥.

على جهة التعظيم لِمَا وَضَعَتْهُ والتفخيمِ لشأنِه والتمهيلِ لها، إذ وقع منها التحسر والتحزن، مع أنَّ هذه الأُنثى التي وَضَعَتْها سيجعلها اللهُ وابنَها آيةً للعالمين وعِبرةً للمُعتبرين، ويختصها بما لم يختص به أحداً؛ أي: إنَّكِ لا تعلمين قَدْرَ هذا الموهوب، وما عَلِمَ اللهُ فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفهام، وتتصاغر عِنْدَها العقول، وأنَّ له شأناً عظيماً.

٨- خروج الخبر إلى معنى التوبيخ والتقريع:

هذان الغرضان مفادُهما التأنيب واللَّوم والعذل ونحو ذلك، وقد ظهرا بشكلٍ واضحٍ وجليّ في قولِهِ-تعالى-: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[فصلت:٢٢]، فهنا يُخبِرُ-سُبْحَانَهُ- أنَّ إنكارَهم هذه الصفة من صفاتِهِ من سوءِ ظَنِّهم به، وأنَّه هو الذي أهلكَهُم وَسَيُهْلِكُ مَن كانَ بظَنِّهم هذا، وهذا تقريعٌ لهم وتوبيخٌ من جهةِ اللهِ-سُبْحَانَهُ- أو من كلامِ الجُلود، أي: ما كُنتُم تَسْتَخْفُون عِنْدَ الأعمال القبيحة وارتكاب الفواحش بالحيطان والحُجُب، حذراً من شهادة الجوارح عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً.

٩- خروج الخبر إلى معنى السخرية والاستهزاء:

يدورُ هذانِ الغرضان البلاغيانِ حولَ مَا إذا كانَ في مطلوبِ الأمرِ إهانة للمخاطب، والاستهزاء هو إسماعُ الإساءة، والسخرية قد تكون في النَّفس، ومن ذلك قوله- تبارك وتعالى-: ﴿ **إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾[الأعراف:٨٢، والنمل:٥٦]، وهذا جوابُ قومِ لوطٍ-عليه السلام-، ووَصْفُهُم بالتطهُّرِ طريقُ السخرية والاستهزاء؛ لأنَّ مُرَادَهم من ذلك-واللهُ أعلمُ- ليس الإخبار، إنَّما أرادوا الاستهزاء بهم، إذاً فَهُم قد عابوهم بغيرِ عيبٍ، وذَمُّوهُم بغيرِ ذنبٍ.

ويُضارِعُ المثال السابق قولُهُ-تَعالَى-: ﴿ **قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ** ﴾[هود:٨٧]، فهنا جاء الخبر في نهاية الآية الكريمة-على لسان قوم شعيب-عليه السلام- مُؤَكَّداً بحرف التَّوكِيد(**إنَّ**)، و(**لام القسم**) مع (**القصر بضمير الفصل**)، فاشتملت هذه الجملة الخبرية على أربعة مؤكِّداتٍ، ليتضمَّن هذا الخبر

الإنْشَاء- لُغةً واصطلاحاً:

النُّون والشين والهمزة، لها أصلٌ صحيحٌ، تدلُّ بمجموعها على الابتداء والخلق؛ فقولُنا: أنشأَ اللهُ الخلقَ، أي: ابتدأَ خَلْقَهُم، والإنْشَاء: الابتداء والخلقُ والابتداعُ.

أمَّا الإنشاء في منظور اصطلاحِ البلاغيينَ فيُخالِفُ المذكور؛ إذ (**هو الكلامُ الذي لا يحتملُ الصدق والكذبَ لذاتِهِ؛ لأنَّهُ ليسَ لِمَدْلُولِ لَفْظِهِ-قَبْلَ النُّطقِ بِهِ- واقعٌ خارجيٌّ يُطابِقُهُ أو لا يُطابِقُهُ**).

أقسامُ الإنْشَاء:

الإنْشَاء عِنْدَ البلاغيين على قسمين، هما:

الأوَّلُ- الإنْشَاء الطَّلَبيّ: وهو ما استدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب؛ لامتناع تحصيل الحاصل، وله أساليبٌ كثيرةٌ، هي: (الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء، والتمني)، وهذه الأساليب تُعطي مَعَانٍي جديدة لقائلها، فيها دفق كبير، لذا اعتنى بها البلاغيون أكثر من أساليب القسم الثاني من أساليب الإنْشَاء غير الطلبي، على ما سيأتي.

الثاني- الإنْشَاء غيرُ الطَّلَبيّ: وهو ما لا يستدعي مطلوباً، وله أساليبٌ مُتعدِّدةٌ أيضاً، هي: (صيغُ المدحِ والذَّم، والتعجب، والقسم، والرجاء، وصيغ العقود)، وهذه الأساليب قليلة الاستعمال عِنْدَ البلاغيين، بل يكادُ تكون مهملةً عِنْدَهم تماماً؛ لندرةِ الأغراض المتعلقة بها بلاغياً، في حين-على العكس من ذلك- نجد أنَّ أساليبَ القسم الأوَّل احتلت مساحةً واسعةً المجال في مظان كتبهم؛ لما تنطوي تحتها من أسرارٍ وأغراضٍ بلاغيةٍ، يتفنَّنُ فيها قائلُها ويتوسعُ فيها أكثر فأكثر، لأجل ذلك سنقفُ-إن شاء اللهُ تعالى- على أساليب الإنْشَاء الطلبي الغنية بالمادة البلاغية، ونُعْرِضُ جانباً عن أساليبِ القسم الثاني؛ لأنَّ بعضَها داخلٌ في أغراض الخبر البلاغية، فضلاً عن أنَّها لا تُستعملُ إلَّا في مَعَانِيها التي وُضِعت لها.

أساليبُ الإنْشَاء الطلبي:

معنىً بلاغياً وهو السخرية والاستهزاء، أي: إنَّكَ لستَ بحليمٍ ولا رشيدٍ؛ بل أنت بالعكس من ذلك عِنْدَنا السَّفيهُ الغوي، أقمأَ اللهُ أفواهَهُم.

١٠- خروج الخبر إلى معنى الوعيد والتهديد:

الوعيد هو التهديد بما سيكون، وذلك إذا كان الْمُخْبِرُ غيرَ راضٍ عن الفعل، فمن ذلك ما جاء في قوله-تَعَالَى-: ﴿**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[البقرة:٧٤]، فهذه الآية الكريمة تكرّرت في ستَّة مواضع[1]، والمراد من الإخبار بجميعها التهديد والوعيد، مع التهويل والتخويف، فضلاً عن الذلة والمهانة للكافرين المعاندين، والإعلام بأنَّ الله-سُبْحَانَهُ- لا يترك أمرَهُم سُدىً، ولا يترك عقوبَتَهُم على هذا الظلم القبيح والذنب الفظيع.

ومن أشدِّ الوعيد والتهديد ما جاء في قوله-تَعَالَى-: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾[النساء:٩٣]، فهذا الخبر جاء متضمناً لأشدِّ وعيدٍ، ومجملاً في أربعة تهديدات، كلّها تقشعر منها جلودُ الذين آمنوا؛ فالخطاب فيها مشعرٌ بشدَّة الأمرِ وعظمتِهِ وخطورتِهِ؛ إذ جمع اللهُ له فيها بينَ كَونِ جهنَّم جزاءً له، أي: يستحقّها بسبب هذا الذنب، وبين كَونه خالداً فيها، وبين غضب الله ولعنته له وإعداده له عذاباً عظيماً، وليس وراء هذا التشديد تشديدٌ، ولا مثل هذا الوعيد وعيدٌ، لمن فكّرَ وقدَّرَ واعتبر، وما أحوج مجتمعاتنا اليوم لهذا؛ فقد كَثُرَ فيها الهرجُ والمرجُ والتشريدُ والفوضى بسبب انتشار القتل.

ونختم هذا المطلب والغرض بقوله-تَعَالَى-: ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ**﴾[الرحمن:٣١]، فقد وَجَّهَ أهلُ اللغة معنى الفراغ من الله-سُبْحَانَهُ وتَعَالَى- أنَّه على معنى القصد، أي: سَنَقْصُدُ لَكم ولحسابكم؛ لأنَّ اللهَ-تعالى- لا يَشْغَلُهُ شُغْلٌ، والمَهيمُ من هذا الخبر أنَّه وعيدٌ شديدٌ من الله-سُبْحَانَهُ- للجِنِّ والإنس، على حَدِّ قول القائل لمن يريد تهديده: إذنْ أَتَفَرَّغُ لك، أي: أقصُدُ قصدك.

المَطلَبُ الثَّاني- الإنْشَاءُ:

[1] في سورة: البقرة:٧٤و٨٥و١٤٠و١٤٤و١٤٩، وآل عمران:٩٩.

الأوّل- الأمرُ:

الأمرُ عِنْدَ البلاغيينَ (**طلبُ حُصُولِ الفعلِ على جهةِ الاستعلاءِ والتَّكليفِ من الأعلى رتبةً إلى الأدنى**)، وله أربعُ صيغٍ مشهورةٍ، هي: (**فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر**).

أغراض الأمر البلاغية:

للأمر أغراضٌ بلاغيةٌ كثيرةٌ، منها:

١ـ خروجُ الأمرِ إلى معنى الخبر:

مرَّ بنا أنَّ الخبرَ يَخرُجُ إلى أغراضٍ بلاغيةٍ كان من أبرزِها الأمرُ، وهنا يُطالِعُنا العكسُ من ذلك، إذ نجدُ أنَّ الأمرَ هو الذي يفيدُ الخبرَ؛ لأغراضٍ بلاغيةٍ كثيرةٍ، منها ما جاء خطاباً للمنافقين في قوله-تعالى-: ﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[التوبة:٨٢]، فهنا وردَ أمران في سياقٍ واحدٍ ﴿**فَلْيَضْحَكُوا..وَلْيَبْكُوا**﴾، ومعناهما الخبرُ؛ والمعنى: فَسَيَضْحَكُ هؤلاء الذين تخلَّفوا عن رسول اللهِ-ﷺ- قليلاً بالنسبة للبُكاء في الآخرة، وسيكون كثيراً، وإنَّما جيء بهما على لفظ الأمر للدلالة على أنَّ ذلك أمرٌ محتومٌ لا يكون غيره، والتقدير: ضحكاً قليلاً وبكاءً كثيراً، أو زماناً قليلاً وزماناً كثيراً، بدليل ما ورد عن أبي هريرة-ﷺ- أنَّ النَّبِيَّ-ﷺ- قال: «لو تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»[1].

ومن قبس خروج الأمر إلى معنى الخبر ما نجده في سورة(مريم)، حينما أمرَ اللهُ-تعالى- رسولَهُ-ﷺ- أن يجيبَ على المفتخرين بحظوظهم الدُّنيوية، والكفار القائلين للمؤمنين: ﴿**أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا**﴾-٧٣، بقوله-تعالى-: ﴿**قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا**﴾-٧٥، أي: مَن كان في الكفر والجهل والغفلة عن عواقب الأمور، وهذا شرطٌ جاء جوابُه على صيغة من صيغ فعل الأمر ﴿**فَلْيَمْدُدْ**﴾، أي: في الدنيا يستدرجه استدراجاً، وهذا وإن كان على صيغةِ الأمر فالمرادُ به الخبر؛ وإنَّما خَرَجَ مخرجَ الأمرِ لبيان الإمهال منه-سُبْحَانَهُ- للعصاة، وأنَّ ذلك كائنٌ لا محالةَ؛ لينقطعَ معاذير أهل الضلال، ويُقال لهم يومَ القيامة: ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾[فاطر:٣٧].

٢- خروج الأمر إلى معنى الإباحة:

[1] صحيح البخاري(٦١٢٠)٥/٢٣٧٩.

لا يرادُ بالإباحة طلبُ الفعلِ على وجه الاستعلاء؛ بل يُستعملُ في مقامٍ يتَوَهَّمُ فيه السامعُ حَظرَ شيءٍ عليه، فيكون الأمرُ إيذاناً له بالفعل، ولا حرج عليه في الترك، وإظهارُ الرضا بوقوعِ الداخل تحته كأنَّه مطلوبٌ، واستعمالُ الأمر في هذا المعنى كثيرٌ في آيِ القرآن الكريم، من ذلك ما نجده في بداية سورة(المائدة)؛ فقد ذكرَ -سُبْحَانَهُ- النهيِ عن أن يحلُّوا شعائرَ الله، عقب ذكره تحريم صيد المُحرم، ثم بعد ذلك أمرهم قائلاً: ﴿**وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا**-٢﴾، ومجيءُ الأمرِ بعدَ التحريمِ يدُلُّ على الحثِّ عليه والإباحة، وكأنَّه أمرٌ مطلوبٌ مرغوبٌ فيه، أباح لهم الصيد بعد أن حَظرَهُ عليهم لزوال السبب الذي حُرِّمَ لأجله وهو الإحرام، ومثله قوله-تعالى-:﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾[الجمعة:١٠]؛ لأنَّه ليس بواجبٍ على المُحرم إذا حَلَّ من إحرامِهِ أن يصطادَ.

ومن أمثلةِ غرض الإباحة ما جاءَ في قوله-ﷻ-: ﴿**فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ**﴾[التوبة:٢]، وذلك بعد الإخبار عن براءة الله ورسوله من المشركين بسبب ما وقع من الكفار من النقض منهم، وقوله تعالى:﴿**فَسِيحُوا**﴾ أمرُ إباحةٍ منه-سُبْحَانَهُ- بالسياحة بعد الإخبار بتلك البراءة، ومعنى الآية أنَّ اللهَ-سُبْحَانَهُ- بعد أن أَذِنَ بالنبذ إلى المشركين بعهدهم أباحَ للمشركين الضرب في الأرض والذهاب إلى حيث يريدون، وليس المراد من الأمر بالسياحة تكليفهم بها؛ بل الإباحة بحصول الأمان وزوال الخوف، أي: سيحوا في الأرض وأنتم آمنون من القتل والقتال، فهو أمرٌ مُباحٌ لكم.

٣- خروج الأمر إلى معنى التسوية:

المقصود بخروج الأمر إلى معنى التَّسوية أن يكونَ الأمرُ في مقامٍ تَوَهُّم رُجحان أحد الأمرين على الآخر، من ذلك قوله-تعالى- خطاباً للكفار-: ﴿**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[الملك:١٣]، فهنا ورد أمران بينهما حرفُ عطف(أو) يُفيدُ التسوية في ظاهره، والمعنى: إنْ أخفيتم كلامكم أو جهرتم به في أمر رسول الله-ﷺ- فكلُّ ذلك يعلمه الله لا تخفى عليه منه خافية، أي: إنَّ الأمرين سيانٌ عِندَه-سُبْحَانَهُ-؛ وذلك دَفْعاً لما قد يُتوهَّم مِن أنَّ الإسرارَ أو الجهرَ نافعٌ للكفار، فضلاً عن ذلك أنَّها تحمل في طيَّاتها معنى الاحتقار والازدراء، وقلَّة المبالاة بعقول هؤلاء الكفار.

٤- خروج الأمر إلى معنى الدُّعاء:

إذا صَدَرَ الأمرُ من مرتبةٍ دُنيا إلى مرتبةٍ عُليا فهو لا يُعطي معنى الاستعلاء والإلزام حينئذٍ؛ بل يُفيدُ معنىً آخر يُفهَمُ من سياق الكلام وقرائن الأحوال، فيفيد-مثلاً- التضرع والخضوع والاستغاثة وطلب العون، وما إلى ذلك من مَعَانِي الدُّعَاء، وقد حوى القرآن الكريم كثيراً من أمثلة هذا النوع؛ لأنَّ الدعاء هو العبادة، فمن ذلك ما نجده في قوله-تبارك وتعالى-: ﴿ **رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ** ﴾ [آل عمران:١٩٣-١٩٤]، فصيغة الأمر تكررت في هاتين الآيتين؛ لأجل تكفير الذنوب ثمَّ بالتوفي مع الأبرار، وطلب الوعد الموعود به، وكلُّ ذلك يُراد به التضرع إلى الله-تعالى- والتوجه إليه والدُّعَاء له، لا المعنى الحقيقي للأمر؛ لأنَّ اللهَ-جلَّ في عُلاه- لا يأمُرُه أحدٌ، لكنَّ التعبير جاء بهذه الصيغة إظهاراً لكمال الخضوع له-سُبْحَانَهُ-، مع بيان شِدَّةِ الرغبة في تحقيق تلك الأفعال، حتى تصيرَ وكأنَّها أُمورٌ مطلُوبةٌ من الله-عزَّ اسمُه-.

ومما اندرج في سلك غرض الدُّعَاء أيضاً قوله-تعالى-على لسان نبيه موسى-عليه السلام-: ﴿ **قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا** ﴾[طه:٢٥-٣٥]، ففي هذه الآيات الكريمات يخبرنا الله-عَزَّ وَجَلَّ- أنَّ نبيَّه موسى-عليه السلام- طلب منه ستة مطالب، تفيدُ كلُّها معنى الدُّعَاء؛ لأنَّها صدرت من رُتبةٍ دُنيا إلى رُتبةٍ عُليا، ولأنَّ المقامَ مقامُ خُضوعٍ وتضرُّعٍ، أي: يا ربِّ: أحكم به قوتي، واجعله شريكي في أمر الرسالة... وفيهِ دليلٌ على أنَّ الحقَّ-جلَّ وعلا- يُحبُّ العبدَ اللحوح في الدعاء.